لغة الشعر الخمري عند بني ربيعة بين السهولة والصعوبة

حضيرة بوتمجت*

من الأمور التي لا يقرها البحث الحديث في اللغة والأساليب أن يحكم الباحث المعاصر وعيه فيما يعرض له من نصوص الأدب القديم، بدلا من ان يحاول إسكانه[1]، متمثلا الوعي اللغوي الذي كان سائدا في عصر هذه النصوص متوسلا في سبيل ذلك بالإحاطة، بلغة العصر الذي عاش فيه مؤلفها. والتراكيب اللغوية أو الأسلوبية التي سادت حينئذ. ومن ثم يمكن للباحث أن يقف على وجوه الاتفاق أو التفرد، في لغة الشاعر.

ولما كنا نتناول في هذا البحث شعر مجموعة من الشعراء، فإن الطريق يصبح أكثر وعورة وإظلاما، ولا سيما إذا عرفنا أن:"لغة هذا العصر الجاهلي لم تضبط بعد ضبطا تاريخيا ولا علميا"[2] فإذا أضفنا إلى ذلك قول مؤلفي كتاب "نظرية الأدب" أنه:"بدون معرفة ما هو الكلام الشائع –حتى الكلام غير الأدبي- وما هي اللغات الإجتماعية المختلفة في ذلك الزمان، فقلما تستطيع الدراسات الأسلوبية أن تتجاوز النواحي الإنطباعية"[3].

وإذا تتبعنا بعض ما كتبه الباحثون عن لغة الشعر الجاهلي وأسلوبه، لا نجده يتجاوز تلك النواحي الإنطباعية التي تعبر عن وجهة نظر عصرية لأصحابها... وهو امر تنبه له هؤلاء الباحثون. يقول الدكتور بدوي طبانة في معرض حديثه عن المعلقات:طقد يكون العسير أن تنعت ألفاظ المعلقات كلها نعتا واحدا، يصدق عليها جميعا، فإن الاختلاف ظاهر بين لغة المعلقات، بل إن المعلقة الواحدة تختلف ألفاظها بين الخشونة والرقة والجزالة والسلامة، وكذلك تختلف فيما بينها من حيث شوع الغريب والحوشي في بعضها، أو في مواضع منهان أو في اجزاء من المعلقة الواحدة"[4]. ثم لا يلبث أن يقول مشيرا إلى هذا الرأي الإنطباعي منبها إلى خطره:"وفي ألفاظ المعقات ما يصح أن ينعت بالغرابة او الحوشية، ولكنهما وصفان غير أصليين فيها، والدليل على ذلك أننا لم نعثر

*جامعة الجزائر 2

على قول قديم ينقد هذا الشعر لغرابته أو حوشيته في البيئة التي قيل فيها هذا الشعر، أو في السنين القريبة من ذلك العصر، وإنما وجه هذا النقد في العصور التالية التي لانت ألسنتها وتهذبت لغتها بعقد الحضارة وتأثير القرآن الكريم... فليس حكم المحدثين على الفظ بالقبح بسبب غرابته أو حوشيته بمقتص هذ الحكم نفسه عند الأقدمين".[5]

ويصرح الدكتور طه حسين أن مقياس السهولة أو الصعوبة مذهب خدّاع[6]، يعود بعد ذلك محكما ذوقه الشخصي أو قل ذوق عصره، فيتسم شعر ربيعة كله بالسهولة التي تبلغ الإسفاف أحيانا[7]، ولا يستثنى من ذلك إلا معلقة الحارث حلّزة، وبعض شعر طرفة بن العبد حيث شدة الأسر وإيثار الإغراب[8]، ويضرب لرأيه هذا مثلا بعدد من شعراء ربيعة، حيث يروى شعرا لعمرو بن قميئة يصفه أمام القارئ قائلا له:"لتلمس بيدك ما جاء فيه من سهولة ولين"[9]، وكذلك فعل مع المهلهل بن ربيعة[10]، والملتمس[11]، والأعشى[12]، وعمرو بن كلثوم[13] الذي يعلق على معلقته قائلا:طومهما يكن من شيء، فإن في قصيدة ابن كلثوم هذه رقة اللفظ وسهولته ما يجعل فهمها يسيرا على أقل الناس حظا من العلم باللغة العربية في هذا العصر الذي نعيش فيه، وما هكذا كانت تتحدث العرب في منتصف القرن السادس للمسيح وقبل ظهور الإسلام بما يقرب من نصف قرن، وما هكذا كانت تتحدث ربيعة، خاصة في هذا العصر الذي لم تسد فيه لغة مضر ولم تصبح فيه لغة الشعرط. ثم يدعو طه حسين القارئ لأن يوازن بين معلقة عمرو بن كلثوم ومعلقة الحارث بن حلّزة، ويتبع ذلك بقوله:"فأنت ترى بين القصيدتين فرقا عظيما في جودة اللفظ، وقوة المتن وشدة الأسر"[14]. وما دام الأمر في الحكم على لغة الشعر وتراكيبه يعتمد على الذوق الشخصي وما يطبعه النص من أثر في نفس قارئه فحسب فقد أصبح من الطبيعي أن تتعدد الأحكام مع ما يحمله التعدد من تضارب وتعارض أحيانا، فهذا أحد الباحثين المحدثين[15] ينعت أسلوب عمرو بن كلثوم بالقوة والسلامة، وهو ما يمكن أن يرادف نعت طه حسين لشعر الحارث بن حلّزة. كما يصوّر ذات الباحث[16] أسلوب الأعشى قائلا:"وعلى أية حال فعلى شعره رونق الحسن وطلاوة الأسلوب... ولقوة طبعه وجلبة شعره سُمي صنّاجة العرب.. ولجلالة شعره وأثره بين العرب كان يرفع الوضيع الخامل". فإن صح

هذا الخبر الأخير عن مكانة شعر الأعشى بين العرب بات من الصعب علينا قبول رأى طه حسين فيه حين نعته بالسهولة والين التي تبلغ حدّ الإسفاف أحيانا.

وبالرغم من آراء طه حسين المتطرفة حول الشعر الجاهلي، والتي لم تعد ترضى المعتدلين من الباحثين، فإن لنا فيها نظرا نجمله فيما يلي:

– سبق لنا أن عرضنا قول طه حسين نفسه بأن لغة العصر الجاهلي لم تضبط بعد ضبطا تاريخيا ولا علميا صحيحا.. ومن ثم فإن قوله عن معلقة عمرو بن كلثوم:"وما هكذا كانت تتحدث العرب في منتصف القرن السادس للمسيح"، حكم لا يستند على أساس علمي، إذ طا دام قد اعترف بأن لغة الشعر لم تضبط، فإنه من البديهي أن لغة الحديث لم تحقق، فكيف يتأتى إذن الحكم بأن لغة معلقة عمرو بن كلثوم تختلف عما كان يتحدث به الناس، وهل من اللازم فينا أن تتطابق لغة الشعر وأساليبه مع لغة الحديث اليومي؟ وبماذا إذن كان سحر القرآن الكريم، وروعته وقد نزل بلسان القوم؟!

– ومادمنا نجهل لغة الشعر ولغة الحديث في العصر كله: بين ربيعة ومضر، واليمنيين، بدوا كانوا أم حضرا، سواء كانوا في الشمال أم في الجنوب، أم اشرق، فإننا بداهة نجهل ما كانت تتحدث به ربيعة ولا سيما في هذا العصر الذي نجهل فيه اللغة أو اللهجة التي سادت برغم ما يقال عن شيوع لهجة قريش وبرغم قلة ما نعرفه عن الفواصل المحددة بين هذه اللهجات فيما يتصل بمفردات اللغة.

– إن ما يذكره د. طه حسين في معرض الموازنة بين معلقة الحارث بن حلّزة، ومعلقة عمرو بن كلثوم، من ان الأولى تتسم "بجودة اللفظ، وقوة المتن وشدة الأسر"، فلا نرى على أساس كان حكمه بجودة اللفظ في هذه دون تلك فهل يقصد جودة الصناعة الفنية؟ إذن فهو أمر آخر غير صعوبة اللغة أو سهولتها.

وأيا كان الأمر فإن ما يعنينا في بحث طه حسين هو ذلك الجانب الإنطباعي حول شعر بني ربيعة الذي استشعر خلاله سهولة شعرهم قياسا على وعينا المعاصر الذي لم نعد نملك غيره مع وعينا بخطره... ولكننا لا نتخذ تلك السهولة سببا للشك في صحة هذا الشعر كما فعل طه حسين، وإنما نرصدها ظاهرة فنية في هذا الشعر، وهي ظاهرة قد حجبت عنا أسبابها وإن كان من

اليسير أحيانا تعليلها بمجاورة بني ربيعة للفرس واختلاط بعض بطونهم بهم، واحتكاكهم تبعا لذلك بحضارتهم. وهو ما يمكن أن يؤثر في لغتهم وأساليبهم، حيث الاتجاه إلى الرقة والبعد عن الخشونة نسبيا في هذا العصر، وهو تعليل لا يمكن تعميمه على كل بني ربيعة، إذ لم يكونوا شعبا واحدا يتحرك مجتمعا في الحل والترحال، أو يختلط اختلاطا يساعد على سرعة التغير اللغوي والأسلوبي فقد عرفنا فيما سلف من فصول أن بعض قبائلهم أو بطونهم كانت تتصارع مع بعضها وتتوارث البغض والعداوة، كما هو مشهور عن بكر وتغلب، ولكن الأمر الذي لاحظه القدماء كما لاحظه بعض المحدثين أن القرب من الممالك المتحضرة في الحيرة أو فارس، أو غيرهما كان داعيا من دواعي التأثير في اللغة، ويعلل الباحثون رقة شعر عدى بن زيد وسهولة منطقه باحتكاكه بملوك الحيرة ومجاورته للفرس حيث كان يعمل في دواوينهم[17]. ولذا كانت ملاحظة الدكتور شوقي ضيف على أسلوب الأعشى بأنه يشبه أسلوب العباسيين وأذواقهم، وفي الوقت نفسه يفترق عن ذوق معاصريه[18]. وما ذلك إلا لتشابه الظروف الثقافية حيث اختلط الأعشى بالشعوب المجاورة ونهل من ثقافتها، مما كان له الأثر في شعره، شأنه في ذلك شأن الشعراء العباسيين الذين عاصروا مرحلة امتزاج الثقافة العربية بالثقافات الفارسية والبيزنطية وغيرهما.

وحقا لا يستطيع الباحث أن يسير خلف تلك الأحكام العامة التي تسم كل شعر ربيعة بالسهولة أو شعر مضر بالخشونة... ففي بعض شعر ربيعة خشونة، وألفاظ حوشية، بل وتراكيب كانت تشكل بعض الإشكال على معاصريهم، ودليلنا على ذلك ما يروونه عن عبيد راوية الأعشى سأله[20] عما يقصده بقوله:"سلبتها جريالها" في بيته الخمري الذي يقول فيه[21]:

وسبيئة مما تعتق بابل   كدم الذبيح سلبتها جريالها

أجابه الأعشى:"شربتها حمراء، وبُلتها بيضاء". أما أبو حنيفة فيشرح البيت بقوله:"يعني أن حمرتها ظهرت في وجهه وخرجت عنه بيضاء وقد كسّرها سيبويه يريد بها الخمر لا الحمرة لأن هذا الضرب من العرض لا يكسّر"[21] كما يدخل في إطار ما يبدو ومن ألفاظ صعبة في شعر الأعشى ما استعمله من ألفاظ فارسية وذلك في مثل قوله[22]:

لنا جُلّسان عندها وبنفسج وسينسبر والمرزجوش منُمنما
وآس وخيرىّ ومروٌّ وسوسنٌ يُصبّحنا في كل دَجْن تَغيَّما
وشاهسفرم والياسمين ونرجسٌ يصُبّحنا في كل دَجْن تَغيّما
ومُسْتُقُ سينين وبربطٌ يجاوبه صنجٌ إذا ما ترنّما

وهذه ملاحظة تتصل بالأسلوب، أو التركيب اللغوي الذي آثره الشاعر.

أما من ناحية اللغة فإن الحكم بسهولة شعر الأعشى ولينه، وقياسا على وعينا المعاصر كما فعل الباحثون، حكم لا يستقرئ شعر الأعشى بتمامه إذ نجد في شعره ما يبعد عن هذه السهولة وذلك اللين، وذلك من مثل قوله[23]

أطلَسَ طلاّع النِّجاد على آلْ وحش غبا مثل القناة أزلْ[24]
في أثره غُضُفٌ مقلدةٌ يسعى بها مغْاورُ أطْحل[25]

ومن مثل قوله[26]

تقطع الأمْعَزَ المكوْكب وخْدًا بنواح سريعةِ الإيغال[27]
عنتريس تعد وإذا مسّها السَوْ طُ كعَدْوِ المصَلْصَلِ الجوّال[28]
لاحه الصّيف والصِّيال وإشفا قٌ على صَعْدة كقوس الضّالِ[29]

.....

غادر الجحشَ في الغُبارِ وعدًّا ها حثيثًا لِصُوَّةِ الأدحال[30]

هذا فضلا عما اشتهر بعض شعر طرفة بن العبد من صعوبة من مثل وصفه الطويل لناقته، وما نجده في شعر المرقشين، في مثل قول المرقش الأكبر[31]:

فهل تُبلغنِّي دار قومي جَسْرَةٌ خَنوفٌ علنْدًى جَلْعَدٌ غيرُ شارف[32]
سديسٌ عَلتها كبرةٌ أو بُويَزْلٌ جُماليَّة في مشيها كالتَّقاذُفُ[33]

ولا نريد أن نكثر من الاستشهاد ببعض أشعار بني ربيعة فتلك قضية لا تحتاج في رأينا إلى مزيد من التمثيل.

أما شعر مضر ففي بعضه —كما قلنا- سهولة ويسر وهذه أبيات من معلقة زهير بن أبي سلمى —وهو علم من أعلام مدرسة أوس بن حجر وروايته يقول فيها[34]

سعى سعيا غيظ بن مرّة بعدما تبزّل ما بين العشيرة بالدّم
فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجالٌ بنوه من قريش وجرهم
يمينًا لنعم السّيدان وُجتما على كلّ حال من سحيلٍ ومبرّم
تداركتما عَبْسا وذبيان بعدما تفانَوْا ودقوا بينهم عِطر منشم
وقد قلتما إن ندرك السِّلم واسعا بمالٍ ومعروفٍ من الأمر نسلم

وإن شئنا مزيدا من شعر مضر أشرنا إلى بعض شعر الخنساء وخاصة قصيدتها المشهورة في رثاء أخيها صخر التي مطلعها[35]

قذى بعينك أم بالعين عوّار أم ذرفت، أن خلت من اهلها الدّار

ومن هنا كان عسيرا أن ننعت ألفاظ الشعر الجاهلي كله أو قسما منه نعتا واحدا، بل يكون عسيرا في احيان كثيرة أن نطلق حكما واحدا على قصيدة واحدة. لذلك يقول الدكتور بدوي طبانة خلال دراسته للمعلقات:"... بل إن المعلقة الواحدة تختلف ألفاظها بين الخشونة والرقة والجزالة والسلاسة"[36] ومن ثم فإننا نقيد كلامنا قليلا حين يتعلق الأمر بإطلاق أحكام عامة على الشعر الجاهلي كله، أو شعر ربيعة وحده، أو مضر.

ولكن الأمر الذي يلاحظه الباحث ويستشعره —ولا ضير علينا في ذلك- أن شعر بني ربيعة —شأن الشعر الجاهلي عامة- يميل إلى الرقة واللين غالبا في غرضين: الغزل والخمريات. ووازن مثلا بين وصف الناقة لطرفة بن العبد وبين غزله وحديثه عن الشراب في ذات القصيدة، وربما كان لذلك أسبابه التي لاحظها بعض الباحثين حيث أن ما يبدو غريبا في الشعر الجاهلي يعود أكثر إلى أنه: كان أسماء لمسميات لم نعد نستعملها في عصرنا، أو أسماء لمواضع لم نعد نراها، ولنباتات، وأجزاء حيوان لم نعد نألفها، ولم تعد تتكرر على مسامعنا أو مشاهدنا كما

كانت تتكرر أما الأقدمين من الجاهليين لا يكادون يفارقونها في ظعنهم وإقامتهم"[37]. وفي مقابل ذلك يمكننا القول أن شيوع ما يتصل بالحب والمرأة من ناحية أخرى، وتعلق الإنسان العربي بهما سواء أقام في البداية أم الحضارة... هو ما مكن لكثرة مما استعمل فيهما من الألفاظ والأساليب أن يعيش عبر الزمن متنقلا بين ألسنة الناس من بيئة إلى بيئة، ومن عصر إلى عصر... ومن ثم لم يكن سهلا أن تتقلص هذه المعاني مثلما تقلصت أسماء أجزاء الناقة أو الأماكن المختلفة في الجزيرة العربية.

ولكننا أيضا نريد أن نعمم هذا الحكم ففي بعض شعر الغزل الجاهلي صعوبة، كما في شعر الخمريات صعوبة كذلك، ولذا اضطررنا إلى شرح كثير من مفردات الشعر الخمري الذي ألحقناه بالبحث. فالقضية إذن مسألة نسبية يستشعر الباحث خلالها أن عامة الخمريات تجنح إلى السهولة، أو بتعبير أدق تبدو لنا سهلة في عمومها دون أن ينطبق هذا الحكم على كامل المفردات.

الإحالات

1-أوستن وارين، رونيه ويليك: *نظرية الأدب*، ترجمة محي الدين صبحي، ص227 وما بعدها.

2-د.طه حسين، *في الأدب الجاهلي*، ص257.

3-أوستن وايرين ويليك، ص 227.

4-معلقات العرب، ص348.

5-المرجع نفسه، ص350.

6-*في الأدب الجاهلي*، ص258.

7-المرجع السابق، ص 227.

8-المرجع السابق.

9-المرجع السابق، 213.

10-المرجع السابق، ص 217

11-المرجع السابق،ص 230.

12-المرجع السابق، 239.

13-المرجع السابق، ص 221 وما بعدها.

14-المرجع السابق.

15-د. عبد المنعم خفاجي: *الشعراء الستة الجاهليون*، ص 125.

16-المرجع السابق، ص 142.

17-الألوسي: *بلوغ الأرب في أحوال العرب*، 118/3 و*ديوان عدي بن زيد* بمقدمة الشارح محمد جبار المعيبد، ص 17 وابن سلام، *طبقات فحول الشعراء*، ص 117 وابن رشيق: *العمدة*، 85/1.

18-العصر الجاهلي، ص357.

19-ابن قتيبة: *الشعر والشعراء* ص138 وابن منظور، *لسان العرب*، مادة جرلٌ ج11 ص 108و 109. الجريال والجريالة: الخمر الشديدة الحمرة،و قيل هي الحمرة، وقيل جريال الخمر لونها. وعند الجوهري الجريال الخمر، وهو دون السلاف في الجودة. والراغب الأصبهاني: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء 290/1.

20-*الديوان*، قص، 55 /8-12 ص293.

21-ابن منظور، *لسان العرب*، ج 11 ،ص108.

22-*الديوان* قص، 55/8-12 ، ص 193.

23-*الديوان* قص، 25/36-،37 ص279.

24-أطلس: في لونه غبرة إلى السواد. النجاد: جمع نجد وهو المرتفع من الأرض. غبا: مصدر غبي (كعلم) أي خفي، أي أنه يدب إلى هذه الوحوش خفية. أزل: أرسح، والرسح قلة لحم العجز والفخذين.

25-غضف: مسترخية الأذان، مغاور العدو أي أغار عليه. أطحل: أغبر في مثل لون الرماد.

26-المرجع نفسه قص، 1/26-،31 ص7.

27-المعز: الغليظ من الأرض. المكوكب المتوقد من الحر. جمل واخد ووخاد واسع الخطو. نواح: قوائم. الإيغال: من اوغل في السير أي ذهب وبالغ وأبعد.

28-عنتريس: صلبة قوية. المصلصل: حمار الوحش لكثرة نهيقه، من صلصل الشيء أي صوت.

29-لاحه: أضمره وغيره. الصيف لأنه وقت الجفاف ويبس الكلأ. الصيال: مصدر صاول يقصد مصاولة الفحول من حمر الوحش. الصعدة: الأتان. الضال: شجر ضخم تتخذ منه القنى.

30-عداها: صرفها. حثيثا: سريعا. الصوة: ما غلظ من الأرض. الإدحال: جمع حل وهي حفرة ضيقة إلا على واسعة الأسفل.

31-*المفضلية*، 50/12-17، ص233.

32-الجسرة الناقة الطويلة على الأرض. الخنوف: التي إذا سارت قلبت خلف يدها، او هي اللينة اليدين في السير. الجلعد: القوية الشديدة.

33-السديس: التي استوفت سبع سنين، يقال للذكر والأنثى. علتها كبرة: أي من رآها ظن أن لها من السنين أكثر مما لها. بويزل: مصفر بازل، وهي التي طلع نابها. الجمالية: المشبهة بخلق الجمل. التقاذف: التدافع، فكانها تزج بنفسها زجا.

34-*الديوان*، شرح الشنتمري، ص 6-7.

35-*الديوان*، ص57.

36-*معلقات العرب*، ص348.

37-د. سعد إسماعيل شلبي: *الأصول الفنية للشعر الجاهلي*، ص 35 و عبد الحميد المسلوت: *الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام*، ص299.